

الشعر في السودان

الأستاذ على المسماري

—•••••—

كنت أود أن يكون عنوان هذا البحث (النهضة الأدبية في السودان) فأتناول فيه من حديث الشعر والنثر ما يرسم صورة صحيحة أو قريبة من الصحيحة للحياة الأدبية هنا ، ولكن يبدو أنه سيمضي وقت ليس بالقصير دون أن يجد الباحث المادة الضرورية لمثل هذا البحث ؛ فإن تقرأ مستقلاً ' يكون أدباً لم ' يتبع بمدى إباحته .

ومن عجب أن يجد الإنسان مادة غير نزر ولا قليلة للشعر ، ولا يجد شيئاً يمكن أن يعتمد عليه في النثر ، وربما كان لذلك أسباب كثيرة هي في الغالب أسباب سلبية ، وقد يكون من الخير التفاوضي عنها ، حتى إذا كان من الخير أن تقول في هذا الشأن قلنا ، ولهذا أرى من الحسن أن أقصر بحثي على الشعر وحده .

وطبى أن يكون في السودان شعر ، وأن يكون فيه شعر وفير ، فإن أسباب الشعر ودوافعه قوية مستفيضة غالبية ، ولو استجاب الشعراء لها ، ولو لم تشغلهم شئون آخر عن التأثر بها ، والتنبه إليها ، لجاءنا شعر وخير كثير .

وإنه لتروعك الرغبة القوية في دراسة الآداب ، واستظهار المنظوم والمنثور عند كثيرين من أبناء السودان ، فإنك تجد عدداً غير قليل يحفظ الآلاف من أبيات الشعر ، فضيلة زميلنا الشيخ محمد المبيد الأستاذ بالمعهد العلمي بأم درمان يحفظ شعر شوقي كله ، لا يند عنه بيت منه ؛ فضيلة الشيخ أحمد الماقيب — وهو شاعر — لا يكاد يمر بمسألة ، أو يأخذ في حديث حتى يستشهد بأكثر من بيت من الشعر القديم ، أو من الشعر الحديث . ولقد لاحظت أن دواوين : شوقي وحافظ والبارودي والمقاد هي الدواوين المفضلة عند الأدباء السودانيين . أما القراءة فهم مغرمون بها ، وأكثر ما يقرأون للأساتذة المصريين من كبار الكتاب أمثال طه حسين والمقاد والزيات وهيك ، وآثر المجلات الأدبية عندهم وأحبها إليهم مجلة الرسالة .

ولا مندوحة لمن يريد الدقة والإنصاف في الحديث عن الشعر السوداني ، أن يقسمه إلى قسمين ، شعر المدرسة القديمة ، وشعر المدرسة الحديثة ، وكلتاها نميش في هذا القرن . ونستطيع أن نقول إن المدرسة القديمة سيطرت على الشعر منذ ابتداء هذا القرن أو قبله بقليل ، وبقيت سيطرتها إلى عهد قريب ، وبعض أساتذتها لا يزالون يرددون الأدب بأشعارهم ، وإن أخذت أشعة المدرسة الحديثة تبدو في الأفق .

وطابع المدرستين جد مختلف ، فبينما نجد سمة التقليد ، والتمسك بالأنقال ، والسير على النهج القديم ، غالبية على المدرسة القديمة ، نجد شيئاً كثيراً من التحرر والطموح والاستقلال في المدرسة الحديثة . وقد تأخر — ولا شك — ظهور هذه المدرسة ولم يستقر لأصحابها ، نهاجهم بعد ، ولكنني أعتقد أن الخطأ الجديدة في نشر التعليم ، وإرسال البعث إلى مصر وإلى غيرها ستؤتي أطياف الثمار في هذه النواحي . نعم لا يزال الشعراء المحدثون في أول الطريق ، ولكن بواكيرهم تبشر بأنهم سيرون بخطى حثيثة نحو السكالك والنضوج .

وسأقصر حديثي في هذا المقال على مقومات المدرسة القديمة ومناهجها ، وطابعها ، وشعرائها .

التقليد — في الواقع — هو السمة الأصلية في أساتذة هذه المدرسة . التقليد للشعر القديم وطرائقه ، تقليد في الأغراض ، وتقليد في المعاني ، وتقليد في الأساليب ، كما أن من السمات الغالبة على هؤلاء الأساتذة سمة الوفا والرزاة والتحفظ . ولا غرو فأكثرهم من (المشايخ) بل إن منهم من وصل إلى أعلى المناصب التي يصل إليها الشيوخ في السودان . نعم من شعراء هذه المدرسة من تخرج في كلية فردون ، ومن تعلم تعليماً مديناً ، ولكن هؤلاء — أيضاً — لا يقفون بعيداً عن طائفة المشايخ ، لأن الروح الدينية أبرز مظاهر الحياة في السودان ، وهي قوية مسيطرة ، والشعر — ونحن نتحدث عنه من الناحية الفنية — في حاجة شديدة إلى الانطلاق والتحرر والاندفاع .

الشعراء ينظمون كثيراً في الدأخ النبوية ، وفي المدح ، والهجاء ، والثناء ، وقيل منهم من يخرج على هذه الأغراض . أما معانيهم فهي هي التي نشأت مع الشعر العربي ؛ فالشجاعة أمد

— وهو من شعراء السودان المدووين — لا يجد أنسب لذكر
الخر --- التي لم يذوقها طبعاً — من تهمة بزواج ، على أنه يبتدىء
مدحة نبوية يذكر الخر فيقول :
أدري على الكأس يا ربة الشعر

وجودي بمسول الرضاب من الشعر
أعلى بهذي الكأس يا عز أنتشى فاسمو بادراكى إلى العالم الشعرى
وأنا — فى الحقيقة — حائر فى هذه الكأس ، أى شىء
فيها ؟ أهو خر ؟ أم شعر ؟ أر رضاب عزة ؟

وكقوله فى مطلع قصيدة ألقاها فى حفلة الميلاد النبوى :
أدركها بعد نومات العشى كيت اللون كالخمد الوضى
مشتمعة بماء الزن رقت كما رقت شمائل أريحي
حواليها نواغم آتسات نواعس ، ذات الحظ بابلى
وعلى ذكر الابتداء بالخر أقول إن وصف الخر ليس غرضاً أساسياً
فى الشعر السودانى ، وإن كنا نجد بعض الشعراء يتسلى بها ،
كما يقول الشاعر صالح عبد القادر .

اسكب الراح ، وتناول من طلب وأدر كأسك ، فالدنيا طرب
واسقنيها بنت كرم عفت تطرد الهمة ، وتشفى من تعب
يا رفاق لا تلوموني على حبها ، فالعيش فى بنت العنب
ما علينا أن شربناها وقد كتب الله علينا ما كتب
... أما الابتداء بالغزل ، فهو — كما قلت آنفاً — اللازمة التى
لا تنفك الكثير من القصائد ، ومن ذلك قول الشيخ عمر
الأزهري يمدح صاحب مجلة الجوائب حيث يقول فى أولها :
سلوا عن فؤادى مسيلات الذوائب

فقد ضاع من بين القلوب الذوائب
فلا سلمت نفس من الحب قد خلت
ولا كان جفن دمه غير ساكب
سبامه حتى لدن المعاطف أهيف له اماتات دونها كل ضارب
ولا عيب فيه غير أن جفونه بنتها على كسر جميع المذاهب
وهذا شعر جيد ، لولا ما ذكر فيه من هذا الاصطلاح
النحوى ، وإن كان ذلك يمد ملحمة ملفقة ، وهكذا يعضى فى
غزله حتى يقول متخلصاً .
وحبى له لم يخف فى الكون أمره

كحب الملا مصباح أفق الجوائب
ولا نعدم فى هذه الناحية من يستن سنة أخرى أيضاً ،

هصور ، والجبل بدر منير ، والمدوح أندى من القمام كفاً ،
وأجود من البحر بدأ ، والفقيد تمزى فيه الرودة والندى ،
والماشق لا يزال يقف على الأطلال ، ويستوقف المسحب ،
وبيكى الديار . وأما الأساليب فقلما تميل إلى شئ من الخروج عن
منهج الشعر القديم ، فلا نجد شاعراً نظم فى غير البحور المعروفة
بل إنك تجد أكثر ما ينظم من الشعر على أوزان البحور
الشهورة من الطويل والكامل والبسيط ، هذه الأبحر التى تمثل
الوقار والشيخوخة والهدوء . ولا أثر فى هذه الأشعار لظل الحياة
الجديدة الناعمة المتألقة ، فهى أكثر تأثراً بما يقرأ أصحابها من
الشعر القديم ، وهم يحلون ، ولذلك يحتذونه .

وأبرز ما يصور لنا هذا النهج هو ابتداء القصائد بالغزل ،
الغزل المصنوع طبعاً ، فالمدائح ، والتهانى ، والتوديعات ، وأشعار
المناسبات ، لا بد من بدئها بالغزل ، ولا بد — مع ذلك — من
إظهار المهارة فى حسن التخلص ، وجودة الانتقال . على أن
بعض الشعراء يترك هذه السنة ليحبنى سنة أخرى ، فيبدأ قصيدته
بذكر الخر وسقاتها وندماها ، أو يذكر النوق وحشها على السير
كأن يقول الشيخ محمد عمر البنا ، وهو يمدح عثمان دقنه وأعوانه
ماضرنى أن لو حثت الميس فى أثر الحول ، وإن علا التأنيب
وزجرت للبكرات دامية الخطا قد مسها نحو الحبيب انبوب
أوجنها سيراً فصارت ضمراً كهلل شك ، ينجلي وينيب
ثم تسأله هذه الميس إلى أين السير ؟ ومن تريد — وأنت
تذرف الدمع — ؟ فيجيبها بأنه يم الزهادة والتقى ، فمساء يلقى
نفحة من مر من زهد الدنيا وطلقها :

(عثمان دقنه) من رقى أوج الملا بفخاره ، والطاهر المجذوب
ومن الابتداء بذكر الخر قول الشيخ عبد الله عبد الرحمن
يسمى أحد أصدقائه بزواج :

هات اسقنى حلب العصير حراء كالخمد النضير
وادع الخلالة والمصبا واهتف بحى على السرور
وأقم (لأحمد) من بيوت الشعر أمثال القصور
وهذا ابتداء واضح الدلالة على العنمة والتقليد ، فالشيخ
عبد الله هذا العالم الوقور الذى نشأ فى بيت الدم والتقى ، لا يطلب
الخر ، ولا يدعو الخلالة ، ولا يستطيع أن يشبه الخر بالخمد
إلا وهو مأخوذ بما فى فكره من شعر القدامى . ثم ما هذه الفارقة
المعجبية ؟ دعوة للخلالة ، وحى على السرور ، ولكن الشيخ